(٢٣) هـ . ل . منكن : اللغة الأمريكية

بقلم : رافن آ . ماكديفيد (الابن)

لنصف قرن كان كتاب هـ . ل . منكن « اللغة الأمريكية » مصدراً للمتعة والمعرفة بالنسبة للمهتمين بتاريخ الإنجليزية الأمريكية كلغة لها حيويتها وتنويعها الخصب . فقد بدأ فى عام ١٩١٩ كعمل متواضع لا يتعدى ثلثمائة صفحة ونما حتى قارب سبعمائة الصفحة فى الطبعة الرابعة التى صدرت فى عام ١٩٣٦ . وكان كل من الملحقين اللذين صدرا فى عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٨ أكبر من الطبعة الرابعة . وكان الاختصار الذى نشر عام ١٩٦١ بمثابة بتر عنيف لضخامة المادة التى خلفها المؤلف وراءه ، لكنه مازال يناهز سبعمائة وسبع صفحات ، وهذا بدون المقدمة وقائمة الجمل والتراكيب والفهرس العام . وعلى سبيل المشاركة فى الجريمة – أى فى هذه الطبعة الأخيرة – فإننى أستطيع أن أشير إلى عورة أخرى كدليل على الإجهاد المضنى والاختيارات المحزنة التى يضطر إليها محقق عمل فنى خالد يهدف إلى تقديم التجربة اللغوية لشعب نشيط ، وأحياناً حكيم ، وغالباً بل دائما مسل .

حقاً إن « اللغة الأمريكية » – مثلها فى ذلك مثل كتب أخرى عظيمة – غالباً مايساء تقديمها على أيدى هؤلاء الذين يعرفونها معرفة ثانوية . وعندما أوشك عام ١٩٦٧ أن ينتهى أشار مراقب من عليائه فى ملحق عرض الكتب الصادر عن النيويورك تايمز إلى اعتقاد منكن الخاطئ بأن اللغتين الإنجليزية الأمريكية والإنجليزية البريطانية تتباعدان بسرعة لدرجة أنهما سرعان ما تصبحان لغتين غير مفهومتين لكلا الطرفين ! حقاً لقد ألمح منكن إلى هذا الاحتمال فى الطبعة الأولى وفى الطبعتين التاليتين فى عام ١٩٢١ و ١٩٢٣ ، لكنه فى مقدمة الطبعة الرابعة عام ١٩٣٦ لاحظ أن ضغط الأحداث قد جمع شمل الشعوب الناطقة بالإنجليزية

أقوى من ذى قبل لدرجة أن الاختلافات فى اللغة – كما فى الأشكال الأخرى للسلوك – يتوقع لها أن تتضاءل فى حدتها . وما هو مثير أكثر للتسلية أن كثيراً من هؤلاء الذين شوهوا كلمة منكن عام ١٩١٩ عن عدم الفهم المتبادل والمتزايد بين اللغتين الإنجليزية والأمريكية فشلوا فى إدراك أنها كانت مشتقة جزئياً من محاضرة مشهورة لمارك توين الذى اعتبره منكن واحداً من أعظم الكتاب الأمريكيين .

وسواء أسىء تقديم كتاب « اللغة الأمريكية » أم لا فإنه مازال يقرأ ويثير المتعة لدرجة أنه غالباً ما يجعل اليأس يدب فى نفوس هيئات تدريس الأدب التى تكتظ بها الجامعات والتى تسيطر على أقسام اللغة الإنجليزية بها . وإذا سلمنا بالنبوءة التى حققت نفسها بنفسها والتى تقول – إنه لن يكون هناك دارس للإنجليزية سيدرس أى كتاب آخر إلا إذا كان مضطراً لذلك – فإن ذلك سيقلل من هيبة العلوم القائمة على أساس ميكانيكى ومن كتابات العلماء الاجتماعيين ، ورهبان الأدب الذين لم يستطيعوا إدراك إمكان تأليف كتاب رصين وجاد عن اللغة بأسلوب جيد بما فيه الكفاية بحيث يجذب إليه جمهوراً من الشعب !

لكن هذا حدث بالفعل . وبيعت الطبعة الأولى ذات الألف وخمسمائة النسخة فى يوم واحد تقريباً . وقد تم إعادة طبع الطبعة الرابعة والملحقين عدة مرات ، فى حين استمرت مبيعات الطبعة المختصرة بانتظام منذ ظهورها وقد جذبت الطبعات الأولى إلى مجال اللغويات دارسين من أمثال إينار هوجن الخبير المرموق فى الازدواج اللغوى وعمليات الاستعارة التى تنتقل بها الكلمات من لغة إلى أخرى ، وديفيد موريز دارس اللغة المعروف بباعه الطويل فى علومها وفى سلوك وثقافة الطبقات الدنيا التى تفرز الإجرام فى أمريكا .

وفى عام ١٩٤٥ لاحظ المرحوم ا . ج . كيندى أن عدد الدراسات التى نشرت عن اللغة الإنجليزية الأمريكية منذ أول طبعة لكتاب « اللغة الأمريكية » يزيد على تلك التى نشرت فى القرون الثلاثة السابقة . وربما كان حجم هذه الدراسات قد تضاعف ثلاث مرات فى الربع الماضى من هذا القرن .

وبالإضافة إلى ذلك فإن كثيرا من الدراسة الأكاديمية ذات الدلالة مدينة بشكل واضح لمنكن سواء فى مجال الاقتراحات الأصيلة ، أو التشجيع الجاد ، أو المساعدة المالية . ولعل قائمة جزئية من هذا النوع من الدراسة يمكن أن تشتمل على جهود «جمعية الاسم الأمريكية » ومجلة « لغة التخاطب الأمريكية » ، ومشروع « الأطلس اللغوى » ، و « قاموس

التراكيب الأمريكية » لميتفورد ماثيوز ، و « أسماء على الأرض » لجورج ر . ستيوارت و « قاموس الإنجليزية الإقليمية فى أمريكا » لفردريك ج . كاسيدى ، وكتاب « إنجليزية إنجلترا : قاموس التراكيب البريطانية » لألن ووكر ريد ، بالإضافة إلى الاهتمام الحديث المركز فى اللهجات الاجتماعية والذى يهدف إلى تقديم برامج أكثر فاعلية فى تدريس الإنجليزية فى المدارس .

ولعل الأسباب الكامنة وراء هذا التأثير المتناقض بسيطة نسبياً :

أولا : كان منكن يجد سروراً لا ينضب فى التصرفات الغريبة الشاذة للأمريكيين العاديين فى حياتهم اليومية .

وثانيا : حاول مسايرة البحث العلمى فى هذا المجال ؛ ولم يقرأ فقط على نطاق واسع ولم ينتم فقط إلى معظم المنظمات الحرفية المهتمة بهذه الدراسات ، بل غالباً ما صحح قراؤه هفواته ووسعوا من منظوره ، علاوة على أن مادته المستمدة من المصادر الشعبية كانت تتضاعف بسرعة من خلال سعيه الدءوب لجمع كل ما تصل إليه يداه .

وأخيرا فإن تعود منكن على الاطلاع الواسع وخبرة عشرات السنين فى التعامل مع الصحف بكل قيودها وحدودها فى عملية النشر – كل هذا نَمى عنده أسلوباً واضحاً وحاداً تغلغل فى النفوس حتى الذين لم يتفقوا مع وجهة نظره .

وفى الحقيقة – وهذه الحقيقة لاحظها تقريباً كل من ألم بأعمال منكن – أن هذه الخصائص الزاخرة بالحمية وحب المعرفة والأسلوب اللاذع – تُميز كتابات منكن فى كل الموضوعات . وكان غرامه باللغة كمرآة لأنشطة الناس الذين يستخدمونها ، وقدرته على استخدام جملة سوقية غير محترمة إذا دعت المناسبة لذلك ، كل هذا جعل كتاب « اللغة الأمريكية » أفضل كثيراً من الكتب التى احتوت على رؤى علماء اللغويات البنائيين والتحويليين والتصنيفيين وغيرهم من القطاعات الأخرى المنافسة . وبالقدر نفسه تبدو تعليقات منكن على فيبلين ودرايزر أكثر إدراكاً ووعياً من النقد الأدبى الذى يتزعمه الآن الأنبياء الكبار بكل تعاليمهم البابوية المتعالية ! [1]

ويتنوع تنسيق كتاب « اللغة الأمريكية » بدرجات طفيفة من طبعة إلى أخرى ، حتى فى الطبعة المختصرة التى صدرت عام ١٩٦٣ كانت هناك تغيرات طفيفة عدة . وكان هناك تزايد مطرد فى عدد الدارسين المهتمين بالموضوع ، ويرجع هذا إلى الاهتمام المتزايد لكل من الباحثين

الأكاديميين والناس العاديين بالأساليب التى يستخدم بها الأمريكيون لغتهم .

وبصدور طبعة عام ١٩٣٦ كانت هناك إشارات هامشية كثيرة إلى مصادر كثيرة من أنواع متعددة لدرجة أن منكن صرف النظر عن قائمة المراجع الرسمية التى وردت فى الطبعات السابقة . وكان المسح الذى قام به للهجات **الوافدة** غير الإنجليزية فى الولايات المتحدة بكل الأضواء التى ألقاها على تأثيرات اللغة الإنجليزية على هذه اللغات – قد حذف ابتداء من ملحق عام ١٩٤٨ .

ومن ناحية أخرى فإن عدد المراجع التى تشير إلى مثل هذه المشروعات «كقاموس اللغة الإنجليزية الأمريكية » و « الأطلس اللغوى » – تضاعف كدليل على أن هذه الإنجازات أصبحت متاحة للجميع .

لكن البناء الأساس للكتاب ظل على أية حال كما هو ، وخاصة منذ عام ١٩٣٦ . وكان أول فصلين بمثابة افتتاحية للكتاب . الأول : « المجريان الاثنان للإنجليزية » – يدور حول الاهتمام المبكر بشواذ الاستخدام الأمريكى للغة .(**ويبدو غريباً** اليوم أن كلمة « خدعة » إذا استخدمت بمعنى غير سوقى فإنها كانت تدل فى ذلك الوقت على الأرض التى يتم الاستيلاء عليها بطريقة ما . ولابد أنها كانت أول كلمة هوجمت بصفتها كلمة أمريكية همجية وذلك على لسان شخص يدعى فرانسيس مور فى عام ١٧٣٥ ، وكان من أوائل المستوطنين فى جورجيا) . فهذا الفصل يدور أساساً حول الاعتراضات البريطانية على الممارسات الأمريكية للغة ، والردود الأمريكية المضادة لهذا النقد ، وأيضاً حول الصراع من أجل قبول هذه الاستخدامات عند الأدباء الأمريكيين والموظفين المتعلمين والسياسيين والدارسين الأكاديميين فى الأمم الأخرى .

أما الفصل الثانى « مواد البحث » فيفحص الخصائص الأساس للابتكارات الأمريكية ويحلل الأساليب المتعددة التى يتبعها المراقبون فى تعريف وتصنيف الإضافات الأمريكية.وليس من المدهش أنه لا يوجد مراقبان اثنان يتفقان فى التفاصيل . عندئذ تأتى الملخصات التاريخية الثلاثة : « بدايات الأمريكية » (الفترة الاستعمارية) . و«فترة النمو»(من الثورة إلى الحرب الأهلية) و « اللغة اليوم ».فى كل من هذه الفصول نجد نظرة متعالية تستمرئ عدم الاحترام للبلاد وسكانها فى تلك الفترة . وهى نظرة مصحوبة بأمثلة من الكلمات المستعارة ، واختلافات المعنى وتغيراته . والمشتقات والتراكيب الجديدة . والصياغات التى لا تقيم وزناً للقوالب الصحيحة .

أما الفصل السادس « الأمريكية والإنجليزية » فيصف التداخل المعاصر بين فرعى اللغة المتنوعين مع مقارنة الاستخدامات سواء بصفة عامة أوبصفة خاصة بمجالات علم المعانى مثل صفات وألفاظ التعظيم ، والألفاظ التى تلجأ إلى التورية بدلاً من استخدام المعانى المباشرة التى قد تجرح الشعور ، والألفاظ المحرمة والسوقية . ثم تأتى ثلاثة فصول تدور حول الملامح البنائية للغة : النطق والهجاء والنحو (وأطلق على الأخير اصطلاح « الكلام الدارج » ويشير إلى لغة العامة) . وهناك فصلان طويلان زاخران بالموضوعات الكثيرة المسلية عن « أسماء العلم فى أمريكا » و « العامية الأمريكية » ثم ملحق تفسيرى موجز عن « مستقبل اللغة » .

فى حدود هذا الإطار كانت هناك تغييرات عدة على سبيل الاستجابة للمعلومات المتزايدة فى نصف القرن الماضى : ففى الطبعات الأولى كان التعبير الشائع على كل لسان « O.K. » قد وصف بأنه من الألفاظ التى ليست لها سلالة مؤكدة محددة مع إلقاء بعض الأضواء على النظرية الخاصة لوودرو ويلسون والتى تشير إلى اشتقاقه من لغة « تشوكتاو » إحدى قبائل الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية.وفى ملحق عام ١٩٤٥ عاد منكن إلى مناقشة الفروض المثيرة التى تدور حول أصلها من أية ناحية ، لكن اقتراح آلن ووكر ريد صادف القبول عنده أكثر ، وهو الاقتراح الذى يقول : إن اللفظ أصبح شائعاً بصفته صرخة الحرب عند الديمقراطيين فى انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٨٤٠ ، وكان اختصاراً لكلمتى Old Kinderhook وهو الاسم المستعار للرئيس المسئول مارتن فان بورين .

وشكراً للأبحاث الإضافية التى قام بها ريد ، (وللصراع الشخصى الذى خاضه مع وود فورد هفلين مؤلف « قاموس الإنجليزية الأمريكية ») : ففى عام ١٩٦٣ تم تتبع أصولها وتبدو أنها تعود بالتحديد إلى ميل عام لاستخدام العامية الأبجدية فى صحف بوسطن عام ١٨٣٨ . وبالصورة نفسها فإن القوائم الأولى للأجزاء الرئيسة من الأفعال المستخدمة عند لغة العامة من الأمريكيين وهى القوائم التى استخرج بعضها من الروايات الشعبية وبعضها الآخر من الخيال – قد حل محلها عام ١٩٦٣ الدليل المستمد من التسجيلات الميدانية للأطلس اللغوى ، الذى قام بمسحه كل من فرجينيا ماكديفيد والمرحوم إ . باجبى آتوود . وبدون أن يفقد أية لمحة من وميضه أوأية قيمة أخرى مثيرة للتسلية فإن الفصل الذى يدور حول العامية أصبح تعليقاً وثائقيًّا ذا نفوذ قوى فيما يختص بالمجتمع الأمريكى .

ولابد من تقديم الشكر فى هذا المجال إلى أبحاث مثل تلك التى قام بها ديفيد موريز فى

ميدان الحرف الإجرامية . أما ملامح اللهجات الاجتماعية فى كل من كندا الإنجليزية وأمريكا – وخاصة لهجات الأمريكيين الزنوج – فقد تم تقديمها بوضوح وتحديد أكثر فى ضوء اكتشافات وولتر س . آفيز ولورنزو تيرنر .

وبالطبع فإن هذا الملخص يعطينا فكرة غامضة عن الكنوز التى يحتويها كتاب « اللغة الأمريكية » فلايوجد قسم واحد يفتقر إلى جمله الاعتراضية المثيرة كما نجد فى تتبع أصل العادة الأمريكية المتعلقة بشجرة عيد الميلاد (ونكاد نكون متيقنين من أن المستعمرين الذين جاءوا من سلالة ألمانية هم الذين أدخلوها) ، وكما نجد فى الإشارات المدهشة إلى أصول لغة اليانكى Yankee (ومن المحتمل أنهـــــــا اشتقت من Jan Kees وهى تصغير لكلمة Jan Cornelius وتستخدم عن الهولنديين كـ John Doe أو Richard Roe كما هى مستخدمة فى الولايات المتحدة ، لتشير إلى الذكر الذى يفتقر إلى الهوية المحددة) ؛ أوكما نجد فى الأصول المشهورة للكلمة التى لا يمكن تجاهلها Cocktail (فمن المحتمل أنها اشتقت فى نيو أورلينز من الكلمة الفرنسية Coquetier بمعنى « الفنجانة التى توضع فيها البيضة المسلوقة قبل تقشيرها ») ، مع صيغ ذات اشتقاقات عدة مثيرة إن لم تكن فظيعة ، وكما نجد فى تتبع تاريخ الفعل to goose ، وفى قبول منكن للصياغة اللغوية لكلمة ecdysiast للإشارة إلى الفنانة التى تقدم نمرة الإستربتيز (وهى حرفة مهددة بالاندثار بعد شيوع ارتداء البكينى والفستان ذى الصدر العارى والارتفاع غير المحدد للمينى جيب) ؛ وكما نجد فى تزايد استخدام الألقاب فى مجتمع ديمقراطى تماماً ، وفى المظاهر الكاذبة المبالغ فيها والمتعلقة بمراسيم الجنازات وحرفة الحانوتى (ممهداً الطريق بذلك لكتاب جيسيكا ميتفورد « الموت على الطريقة الأمريكية ») .

وهناك مئات من الإشارات إلى اتجاهات منكن الأدبية والاجتماعية ، وحماسه للحيوية التى كتب بها كل من مارك توين ورنج لاردنر ، واحتقاره للروح الباهتة التى تغلف أعمال فينيمور كوبر وهنرى جيمس ، واشمئزازه من ادعاءات نقاد الأدب ومذاهب التربية ، وتسليته التى يستمدها من السلوك الغريب المستمر للسياسيين الأمريكيين بصرف النظر عن الحزب أوالجماعة التى ينتمون إليها (ولعل هذا يرجع إلى حكمته التى اكتسبها كمراسل سياسى له باع طويل فى هذا المجال ، وعن حق فقد كان الشك يأخذ منه كل مأخذ فيما يتصل بالمصلح المتحمس المشغوف ورجل الفضيلة التى تؤكد نفسها بنفسها) .

كما يجب ألانتجاهل الملاحظات والإشارات الهامشية ، فهى ليست مجرد الإضافات

والاعترافات الكريمة بمجهودات الآخرين ، والتى يحرص عليها الدارسون المحترفون والمراقبون الهواة (فكثير منها تحول إلى أبحاث جادة مستقلة بذاتها ولابد أن نزجى الشكر هنا لتجاوب منكن وتشجيعه) لكنها فى ذاتها ربما تكون أمتع الملاحظات الهامشية منذ تلك التى سجلها جيبون فى كتابه « انهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية » أو التى أضافها سير ريتشارد بيرتون فى ترجمته لكتاب « ألف ليلة وليلة » . ويعد المقتطف التالى نموذجاً على تعليقه على تزايد الأفعال الأمريكية التى تنتهى بـ ize : :

« لم أكد أنتهى من تسجيل هذه الفقرة على الورق عندما أرسل إلى أحدهم نسخة من الملحق الأدبى للتايمز اللندنية الصادرة فى ٧ من يونيو ١٩٣٤ وفيه الفعل to obituarize (بمعنى يؤبن) وقد علمه بدائرة حمراء . وأسوأ من ذلك أننى اكتشفت وجودها فى قاموس أوكسفورد للغة الإنجليزية ، كما استخدمتها « الساترداى ريفيو» اللندنيةفى عددها الصادر فى ١٧ من أكتوبر ١٨٩١ . وإذا كان فى إمكانى أن أتدخل بمشاعرى الخاصة فى عمل علمى فإننى أخاطر بإضافة قولى بأن رؤية وحش يوحى بالبربرية الأمريكية فى جريدة « التايمز » قد أثارنى مثل رؤية أسقف يغمز بعينه لامرأة ساقطة (ص ٢٤٣) .

وبالروح نفسه كان تعليقه على الانعكاسات الجنوبية المبكرة « للجاز » كنوع من الموسيقى : « إنه طبقاً لرافن آ . ماكديفيد (الأب) من مدينة جرينفيل وعضو مجلس القضاء الأعلى – أن إشهار أول فرقة للجاز فى كولومبيا (عاصمة الولاية) عام ١٩١٩ حيث كان يخدم فى هيئة تشريع الولاية – أشاع أحاسيس الرعب بين أعضاء الطائفة المحلية للمعمدانيين ، مثلما حدث عند الظهور الشخصى لإله اليهود يهوه . ولم يكن « الجاز » حتى ذلك الوقت قد سمع فى كارولينا الجنوبية إلا كفعل يعنى المضاجعة الجنسية ! » (ص ٧٤٣) .

وإذا كانت اللغويات قد بدأت فى اتخاذ السمت الكامل للاحترام الأكاديمى فإن كثيرا من الزملاء والإخوة ذوى الحيثية يميلون إلى الإقلال مما اعتبروه روح الهواية عند منكن ، ومهاجمة افتقاره إلى الاهتمام بمنهج علم الصوتيات ونظرية القواعد المحددة للغة . لكن بصفته أحد الذين بذلوا مجهوداً شاقًا فى المساعدة فى تقديم عرض منهجى للنطق الأمريكى لم ينل من سوقة المنهج التحويلى فى النحو إلا التناثر والبعثرة . ولقد ظللتُ غير متأثر بأى مدخل للغة يعتبر توجيه المادة المجموعة كلمة قذرة : ففى نظرى أن اللغة هى أكثر الأنشطة الإنسانية تميزاً . وبالنسبة للشخص

الذى يشعر أن أعظم دلالة للإنجليزية الأمريكية إنما هى فى الأسلوب الذى تعكس به التجربة الاجتماعية والثقافية للشعب الأمريكى . يبدو المذهب الديكارتى الرشيق تافهاً وعقيماً مثلما تبدو فلسفة دانز سكوتاس التقليدية لمربى الماشية .

وإذا سلمنا بوجود مكان لابتكار النماذج النظرية ، فهذا ليس بديلاً عن الاختبارات الشاقة للأساليب التى يتبعها الناس الأحياء فعلاً فى مخاطبة الأحياء الآخرين والكتابة إليهم ، طبقاً لتنوع المواقف والأغراض والنتائج .

وعندما رفض منكن الالتزام بمدخل نظرى واحد فإنه أنقذ عمله من أن يكون رهن الفترة التى كتب فيها ، فإن مايحدث بالضرورة أن كل رؤية جديدة تلغى سابقتها ، وكان مدركاً تماماً أن ذوق الجمهور الأمريكى – بما فيه ذوق محترفى الدراسة الأكاديمية – متقلب ولا يثبت على حال :

« وبالطبع فإن الأمريكى لاتنقصه القدرة على النظام ؛ فهو يرحب بالإذعان للقيادة بل للطغيان ، لكن من العجيب أنها ليست القيادة القديمة التقليدية التى تطويه تحت لوائها ، بل القيادة الجديدة المتطرفة (حتى عندما تهدف إلى الدفاع عن التقاليد كما حدث فى الجنوب الذى اجتاحته الغوغائية) . إنه سيقاوم أى إملاء للأوامر صادر عن الماضى ، لكنه سيتبع أى مسيح جديد حتى لوكان ينادى بطغيان الإرادة الروسية ، وسيتبعه وسط أكثر الشطحات انطلاقاً ووحشية فى مجال الاقتصاد والعقيدة والأخلاق والكلام . ويمكن فكرة مزيفة جديدة فى السياسة أن تنتشر فى الولايات المتحدة أسرع من أى مكان آخر على وجه هذه الأرض ، وينطبق هذا على أية رؤية جديدة لوجود الله ، أوأية عقيدة قد تبدو جديدة ، لكن الزمان فى الواقع أكل عليها وشرب ، أوأية استعارة ، أو أية قطعة مكتوبة بالعامية » (ص ٩٩) .

والواقع أن تمكن منكن من اللغويات كان بعيداً تماماً عن البدائية : فقد كان ضليعاً بصفة خاصة فى الفرع التاريخى من هذا العلم. وملخصه لتاريخ تصريفات الأسماء لا يقل فى تركيزه ورشاقته عن أى شىء كتبه الدارسون المحترفون : « كان للغة الهندو أوروبية البدائية ثمانى حالات للاسم ؛ وفى الإنجليزية القديمة خفضت إلى أربع بدون قاعدة ثابتة مما جعلها على وشك الاندثار ، ولم تكن تختلف كثيرا واستخدام المفعول الثانى ؛ وفى إنجليزية العصر الوسيط بدأ المفعول الثانى والمفعول الثابت فى الاندثار ؛ أما فى الإنجليزية الحديثة فقد اختفى المفعول الثانى والثابت كلية ماعدا بعض الأشباح التى تطارد علماء النحو » (ص ٥٢٦) .

ويشعر المرء بالإغراء يدفعه إلى تأمل الأسلوب الذى رأى به منكن أحداث العشرين سنة التى مضت منذ توقفه عن الكتابة . لابد أنه كانت لديه كلمات حادة لاذعة عن الضياع الذى تكلم عنه فيبلين والذى ظهر فى تفاهات التليفزيون ، وجبروت الطرق الممتدة بلاهدف ، وطيران النفاثات إلى غير وجهة محددة . أما بالنسبة للبيروقراطية المزدهرة ابتداء من برتوكول البنتاجون حتى الأرباح المستقرة للعمال الذين يحرصون على استمرار اعتماد الحرفاء والعملاء عليهم – فلابد أن منكن كان لديه كلمات رقيقة قليلة ، وكان من المحتمل أن يظهر ابتسامة ساخرة من الإصرار العدوانى الجديد لبعض الجماعات العنصرية ، لكنه عندما لاحظ التردد السابق لزنوج الطبقة الوسطى فى مجرد الاعتراف بحبهم للبطيخ أو الدجاج المشوى – لم تفته شكوى المتعصبين السود فى جامعة نورث ويسترن من أن قاعات الطعام رفضت تقديم الطعام المفضل عند الزنوج مثل « ممبار » الخنزير المشوى ، والخبيزة الخضراء ، والبطاطا .

وإذا كان قد سجل بالوثائق إصرار العصر السابق على استخدام كلمة « زنجى » بدلا من بعض التعبيرات الأخرى – فإنه لاحظ فى سخرية مريرة أن هذا الاصطلاح قد أصبح الآن مثيراً للاحتقار الاجتماعى ، وأن كلمة « أسود » التى كانت أكثر الصفات إثارة للاحتقار أصبحت الآن مصدراً للفخر عند الذين يدعونها ، على الأقل هؤلاء الذين ينتمون إلى الجيل الأصغر من الجماعة والذين فرضوا أنفسهم على الأوضاع الراهنة . وليس هناك من يصادق الذين احترفوا المناداة برفع لواء المصلحة العامة سوى الليبرالى الذى ينتمى إلى القرن التاسع عشر والذى يؤمن إيماناً جازماً بأن حقوق المواطنين الملتزمين بالقانون يجب ألا يمسها أفراد عصابات الشوارع ، وسيكون أقل تعاطفاً مع القرارات القضائية الحديثة التى تعوق عمل رجال البوليس ، وربما اشتكى أن التراخى فى فرض القيود على الانحلال والإباحية لم يعذب القارئ فقط بكمية لابأس بها من الكتابات المملة التى تنتمى إلى الدرجة العاشرة ، بل أضاع قدراً لابأس به من البهجة الحقيقية . لقد كان من الممكن أن يقضى ساعة من أفضل ساعات عمره تحت لواء سلطنة أيزنهاور بلاخوف من أى هجوم لكى يقوم بدور المرشد الرائد وارين ج . هاردنج الذى طالب بأن تعود الحياة إلى مجاريها المستقيمة .

وموجز القول أنه كان من الممكن ألا يجد أية لمحة من لمحات الشذوذ والعواطف الفجة المبالغ فيها لكى يصورها مع ظواهر الحياة الأمريكية التى هى أكثر جدية وقيمة . كان من الممكن أن يقيم مهرجاناً لاستقبال « قاموس ميريام وبستر الدولى الجديد الثالث » ، وكان فى وسعه أن

يقدم اعترافاً موجزاً إلى جماعة الشعبية العابثة التى لامعنى لها والتى يتمتع بها كهنة الأدب المنمق الجميل من أمثال ويلسون فوليت ودوايت ماكدونالد وجاك بارزون – فضلاً عن أنه لن يقول شيئاً عن الهجمات الهمجية المتكررة من محررى أعمدة الصحف والنقاد الأدبيين الذين يجهلون تماماً تاريخ تأليف القواميس وكيفية القيام بهذه المهمة بحيث لايعرفون : أى القواميس قد صممت لتفى بالغرض منها ، بل إنهم بلغوا درجة من الكسل تمنعهم من فحص « القاموس الجديد الثالث » بأنفسهم . وأستطيع أن أتخيله وقد انفجر ضاحكاً من الحقيقة التى تؤكد أن معظم الهجمات النقدية المعادية قد اعتمدت مباشرة على الشعارات الجاهزة للجماعة ، وأن كتّاب مجلة « أتلانتيك » قد أظهروا معلوماتهم عن صنع القواميس وقد تضاءلت فى حجمها عن الذين سبقوهم عام ١٨٩٠ .

كان فى وسعه أيضاً أن ينحى باللائمة على « المفكرين والمثقفين » مثل « اليساريين الجدد » فى حياتنا الجامعية ، والذين هجروا استخدام فكرهم الأصيل ، ورفضوا القيام بفحص الأدلة والبراهين ، بل كانوا ينعقون فى رتابة بشعارات الببغاوات التى صبها قادتهم من قبل فى قوالب من صنعهم .

وكان من الممكن أن يظهر احتقاره بالدرجة نفسها لأتباع المذهب الإنسانى الذين يظهرون استخفافهم بتلك النظم – مثل علم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع – التى تهتم بأنشطة البشر ؛ ولم يكن احتقاره ليتفادى من علماء الجمال الذين نعتز بهم ، والذين يزحمون أقسام الدراسات العليا فى الأدب ، والذين يديرون ظهورهم لمشكلات اللغة فى المدارس العامة .

وكان من الممكن أن يعرض قضيته بأسلوب جيد بحيث يستطيع أن يكتسح بعض من يعدون أكثر أعضاء الأرستقراطية الأدبية ، إيماناً وتديناً ، ويدفعهم إلى تذوق الوسائل الخصبة التى يطور بها الأمريكيون استخداماتهم الجديدة للغة [٢] .

وكما قال ذات مرة لى : « إن الهدف العام والشامل لهذا الجهد المهلك كان إقناع ٢٠٠٪ من الأمريكيين أن دراسة اللسان القومى يمكن أن تكون مسلية ومثيرة ، لكن كونه مهما يأتى فى المقام الأول قبل التسلية والإثارة » .

وقد نجح إلى حد كبير فى محاولته لدرجة أن كتاب « اللغة الأمريكية » سيظل يحتفظ بمكانة مرموقة بصفته العمل الذى سيذكر به منكن لأبعد الآماد الممكنة .

ملاحظات

١ – عند الفنيين الذين يتبعون المذهب الإنسانى تبدو لغة المصطلحات الفنية التى يستخدمها العالم الاجتماعى بمثابة « خيال المآتة » لإحراز انتصارات لفظية ساحقة ، لكن نقاد الأدب – سواء كانوا من الجدد أومن أتباع أرسطو أوفرويد – قد أصابتهم على الأقل الحيرة نفسها والغموض نفسه . وعلماء اللغويات الأمريكيون لهم أيضاً لغة المصطلحات الفنية المسهبة التى ترتبط بحرفتهم . ويأتى القدر الكبير من تعقيدها نتيجة لأسلوب ممارستهم لها مثلما فعل رائدهم الأول ليونارد بلومفيلد عندما أصر على استخدام المنهج العلمى الصارم والمصطلحات الفنية الدقيقة ، لكن بعض هذا التعقيد نتج عن الكتابة السيئة ، وربما عن التفكير المشوش » (ص ص ٣٣٦ – ٣٣٧) : الإشارات هنا إلى صفحات الطبعة المختصرة التى صدرت عام ١٩٦٣ فى جزء واحد .

٢ – وأينما كان فى أية طبقة من طبقات السماء الآن – فلابد أنه سيثير ضجة عالية عندما يعلم أن محرر ومحقق طبعة ١٩٦٣ المختصرة – قد نال جائزة مع مرتبة الشرف من مؤسسة تعتمد على معونات المعمدانيين الجنوبيين ! .